فصل في
شهادات بعض علماء وفلاسفة
ومفكري ومستشرقي الغرب

لقد اطلع بعض علماء ومفكري الغرب وخاصَّة المستشرقين منهم على شيء من سيرة نبينا ﷺ العطرة في سلمه وحربه مع أوليائه وأعدائه،واطلعوا على بعض جوانب الدين الإسلامي الحنيف، فلم يجدوا بُدًّا من تسطير شهاداتهم بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وسماحته وسماحة دينه وعلو رتبته، ليحفظها التاريخ حجة عليهم وعلى بني جلدتهم ، ويكون فيها عظةٌ وعبرةٌ للمخدوعين من جهلة المسلمين بثقافة الغرب وقوانينهم ، وإلا فنحن ولله الحمد على يقين بديننا وصدق نبينا ﷺ وبينة من أمرنا ، وإليك بعض أقوالهم :

[١] مايكل هارت في كتابه : «مئة رجل من التاريخ» :

فقد بدأهم بنبينا ﷺ ثم قال معللاً ذلك : إن اختياري محمداً ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ قد يدهش القُرَّاء،ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي.

فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدءوا رسالات عظيمة ولكنهم ماتوا دون إتمامها كالمسيح في المسيحية،أو يشاركهم فيها غيرهم أو سبقهم إليها سواهم كموسى في اليهودية،ولكنَّ محمداً هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها ، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته،ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً وحد القبائل في شعب، والشعب في أمة ، ووضَّح لها كل أسس حياتها ، ورسم أمور دينها ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم ، أيضاً في حياته فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية وأتمها . اهـ .

[٢] (ليف تولستوي) :

الأديب العالمي الذي يعد أدبه ـ كما قيل ـ من أمتع ما كتب في التراث الإنساني قاطبة عن النفس البشرية قال : يكفي محمداً فخراً أنه خلَّص أمة ذليلة دموية من مخالب شيطان العادات الذميمة ، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم ، وإنَّ شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة .

[٣] آن بيزيت: صاحب كتاب (حياة وتعاليم محمد) دار مادرس للنشر ١٩٣٢م:

قال : من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب العظيم،ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علَّم الناس إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل أحد رسل الله العظماء ، ورغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياءً قد تكون مألوفة للعديد من الناس ، فإني أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم .

هل تقصد أن تخبرني أن رجلاً في عنفوان شبابه لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره بعد أن تزوج من امرأة أكبر منه بكثير وظل وفياً لها طيلة ٢٦ عاماً ، ثم لما بلغ الخمسين من عمره ـ السن التي تخبو فيها شهوات الجسد ـ تزوج لإشباع رغباته وشهواته؟ ، ليس هكذا يكون الحكم على حياة الأشخاص .

فلو نظرت إلى النساء اللاتي تزوجهن ، لوجدت أن كل زيجة من هذه الزيجات كانت سبباً إما في الدخول في تحالف لصالح أتباعه ودينه،أوالحصول على شيءٍ يعود بالنفع على أصحابه، أو كانت المرأة التي تزوجها في حاجة ماسة للحماية .

[٤] برنارد شو الانجليزي له مؤلف سماه (محمد):

قال : إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد ؛ هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات خالداً خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بيِّنة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوروبا) .

إن رجال الدين في القرون الوسطى ونتيجة للجهل أو التعصُّب قد رسموا لدين محمد صورةً قاتمةً. لقد كانوا يعتبرونه عدواً للمسيحية ، بل يجب أن يسمَّى منقذ البشرية ، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم لوفَّق في حل مشكلاتنا بما يؤمِّن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها .اهـ

[٥] السير موير الإنجليزي في كتابه (تاريخ محمد) :

قال: إن محمداً نبي المسلمين لقب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه وحُسن سلوكه، ومهما يكن هناك من أمرٍ فإن محمداً أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله، وخبيرٌ به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمداً في طليعة الرسل ومفكري العالم.

[٦] سنرستن الأسوجي أستاذ اللغات الساميـــة ومحرر مجلة العالم الشرقي ومؤلف كتاب (تاريخ محمد) يقول:

إننا لم ننصف محمداً إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا، فلقد خاض محمدٌ معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية مصِّراً على مبدئه ، وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين ، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع وهو فوق عظماء التاريخ . اهـ .

[٧] مونتجومري وات في كتابه «محمد في مكة» ١٩٥٣ م صفحة ٥٢ .

قال: إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيداً وقائداً لهم إلى جانب عظمة إنجازاته المطلقة ،كل ذلك يدل على العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه، فافتراض أن محمداً مدع افتراض يثير مشاكل أكثر ولا يحلها. بل إنه لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين لم تنل التقدير اللائق بها مثل ما فعله محمد .

[٨] بوسورث سميث في كتابه (محمد والمحمدية) لندن ١٨٧٤ م صفحة ٩٢.

قال: لقد كان محمد قائداً سياسياً وزعيماً دينياً في آن واحد، لكن لم تكن لديه

عجرفة رجال الدين كما لم تكن له فيالق مثل القياصرة ،ولم يكن لديه جيوش مجيشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت.

إذا كان لأحدٍ أن يقول إنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد ، لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها ودون أن يسانده أهلها.

[٩] إدوارد جيبون وسيمون أوكلي في كتابه (تاريخ إمبراطورية الشرق) لندن ١٨٧٠ م صفحة ٥٤ :

قال: ليس انتشار الدعوة الإسلامية هو ما يستحق الانبهار،وإنما استمراريتها وثباتها على مرِّ العصور، فما زال الانطباع الرائع الذي حفره محمد في مكة والمدينة له نفس الروعة والقوة في نفوس الهنود والأفارقة والأتراك حديثي العهد بالقرآن ، رغم مرور اثني عشر قرناً من الزمان.

لقد استطاع المسلمون الصمود يداً واحدة في مواجهة فتنة الإيمان بالله رغم أنهم لم يعرفوه إلا من خلال العقل والمشاعر الإنسانية. فقول " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، هي ببساطة شهادة الإسلام ، ولم يتأثر إحساسهم بإلوهية الله (عز وجل) بوجود أي من الأشياء المنظورة التي كانت تتخذ آلهة من دون الله. ولم يتجاوز شرف النبي وفضائله حدود الفضيلة المعروفة لدى البشر ، كما أن منهجه في الحياة جعل مظاهر امتنان الصحابة له (لهدايته إياهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور) منحصرة في نطاق العقل والدين.

[١٠] المستر سنكس مستشرق أمريكي ولد في بلدته بالاي صاحب كتاب: (ديانة العرب):

قال: ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة ، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة ، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد وبحياة بعد هذه الحياة.

إلى أن قال: إن الفكرة الدينية الإسلامية أحدثت رقياً كبيراً جداً في العالم، وخلصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي

الكهان ،ولقد توصل محمد ـ بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ـ إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة.

[١١] الدكتور زويمر مستشرق كندي قال في كتابه الشرق وعاداته:

إن محمداً كان لا شك من أعظم القواد المسلمين الدينيين ، ويصدق عليه القول أيضاً بأنه كان مصلحاً قديراً ، وبليغاً فصيحاً ، وجريئاً مغواراً ، ومفكراً عظيماً ، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات ، وهذا قرآنه الذي جاء به وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء.

[١٢] سانت هيلر مستشرق ألماني ولد في درسدن ١٧٩٣ - ١٨٨٤-م ، قال في كتابه (الشرقيين وعقائدهم):

كان محمد رئيساً للدولة وساهراً على حياة الشعب وحريته ، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب أحوال زمانه ،وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كان يعيش النبي بين ظهرانيها، فكان النبي داعياً إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفاً ورحيماً حتى مع أعدائه ، وإن في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرحمة.

[١٣] البروفسور رما كريشنا راو قال في كتابه " محمد النبي ":

لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها،ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه هو نبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة،فهناك محمد النبي، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال،ومحمد رجل السياسة ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح،ومحمد ملاذ اليتامى وحامي العبيد،ومحمد محرر النساء،ومحمد القاضي ، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلاً» .

[١٤] المفكر الفرنسي لامارتين قال في كتاب " تاريخ تركيا " الجزء الثاني صفحة - ٢٧٦ - ٢٧٧:

إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سمو الغاية والنتائج المذهلة

لذلك رغم قلة الوسيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيّاً من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد (ﷺ) في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة،وسنوا قوانين، وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجاداً بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانيهم.

لكن هذا الرجل (محمد) ﷺ لم يقد الجيوش ويسن القوانين ويقيم الإمبراطوريات ،ويحكم الشعوب ويروض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس فيما كان يعد ثلث العالم حينئذ ، ليس هذا فقط، بل إنَّه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة.

لقد صبر النبي وتجلد حتى نال النصر (من الله). كان طموح النبي (ﷺ) موجهاً بالكلية إلى هدف واحد ،فلم يطمح إلى تكوين إمبراطورية أو ما إلى ذلك، حتى صلاة النبي الدائمة ومناجاته لربه ووفاته (ﷺ) وانتصاره بعد موته،كل ذلك لا يدل على الغش والخداع، بل يدل على اليقين الصادق الذي أعطي النبي الطاقة لإرساء عقيدة ذات شقين: الإيمان بوحدانية الله،والإيمان بمخالفته تعالى للحوادث.

[١٥] يقول المؤرّخ والفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب ٦٠٥:

الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم. اهـ.

خلاصة القول في سيرته ﷺ وسنته والدين الحق الذي بعث به

قال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ في كتابه السياسة الشرعية:

نبذة من أخلاقه وأوصافه ﷺ ، وشيء من سيرته الدالة على أنه رسول الله حقاً ، وأن ما جاء به من الدين هو الحق على وجه الإيجاز .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم :٤] ، من نظر إلى سيرته ﷺ في مبدأ أمره ومنتهاه وبين ذلك وتطورات أحواله، وما حصل بذلك من الأحوال والانقلاب العجيب في العقائد والأخلاق والآداب والتشريع العادل الرحيم والخير والرحمة مما لم يعهد له نظير في تاريخ البشر، وبعدما كانت الأرض مملوءة من الشرك والوثنية المستولية على عقول أكثر الخلق والإلحاد والظلم والشر والفساد وسفك الدماء وقطيعة الأرحام والمعاملات السيئة بكل وجوهها، استبدلت بأضدادها من عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله ، والقيام بعبوديته التي خلق لها الخلق، وبالقسط والعدل في جميع الحقوق، وبصلة الأرحام، والإحسان إلى جميع طبقات الخلق، عرف أن هذا من أكبر براهين رسالته ﷺ، وكمال دينه وشريعته، وأنه أعظم مرشد ومصلح للبشرية على الإطلاق. فقد كان ﷺ معروفاً بين قومه قبل بعثته بالصدق الكامل، والأمانة التامة، والبر والعدل ومكارم الأخلاق، متربياً على الأخلاق الجميلة، متنزهاً عن الأخلاق الرذيلة، لا يعرف له شيء يعاب به لا قليل ولا كثير، ولا جرب عليه كذبة واحدة ولا خيانة ولا ميل في شيء من أقواله وأفعاله.

وكان نقي القلب، ناصحاً للقريب والبعيد، وصولاً للأرحام، موفياً بالعهد والذمام، حاملاً للكلّ، معيناً على نوائب الحق، متواضعاً لله ولعباد الله. حليماً صبوراً عفواً محسناً، كامل العقل والرأي، حازماً مسدّداً موفقاً في حركاته وسكناته، مع أنه قد نشأ مع أمة أمية لا تعرف الكتب ولا تدرس الشرائع، وهو في نفسه لا يقرأ ولا يكتب ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ، ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦] ، فلم يزل محبباً له الخير، فعالاً له متنزهاً عن جميع الشرور، حتى فاجأته الرسالة والوحي من الله تعالى، ورحم الله به الخلق ، فجاءهم برسالة عظيمة عامة فيها صلاح البشر كلهم وسعادتهم، وجاءهم بكتاب كريم لم يطرق العالم كتاب أعظم منه ولا أجل ولا أجمع لكل خير ولا أغزر علماً منه.

وأخبرهم بأمور عظيمة وتفاصيل جمة لم يكن في قومه من كان يعرفها، ولا في الأرض أحدٌ عنده علم صحيح ينافيها وينكرها.

وأعلن بهذه الرسالة غاية الإعلان لعلمه اليقيني الذي لا ريب فيه أنها الحق، واعتماده على الحق، ووثوقه بوعد الله بالظهور. مع كثرة الأعداء وتوفر المعارضين، من أهل الكتاب والأميين وغيرهم، فبادأهم وصرّح لهم بإنكار ما هم عليه من الشرك والشرور والأخلاق الرذيلة، وأن شريعته نسخت جميع الكتب، وهيمنت على كل الشرائع السابقة، فرماه الجميع بقوس العداوة، وجدّوا واجتهدوا في ردّ ما جاء به، ونصر باطلهم.

وتحدَّى قاصيهم ودانيهم وأولهم وآخرهم أن يأتوا بمثل القرآن، فما استطاعوا ذلك، ولا قدروا على ردّ شيء من دينه، مع أنهم مكروا مكراً كباراً، وأتوا بكل وسيلة وحيلة، فرجعوا منهزمين أمام الحق خائبين، والمنصف منهم لم يجد بداً من الاعتراف، والجاحد المكابر طفق ينصر باطله، فلم يبدِ حجة ولا برهان، بل ولا شبهة يتكىء عليها.

ومن أكبر أدلة الحق معرفة ما قاله أعداؤه ومعرفة حججهم التي لا تغني من الحق شيئاً.

وجاء ﷺ للخلق وحده، لم يكن له من أول الأمر أعوان ولا أنصار، إلا الحق الذي هو نعم العون على الأمور كلها، فلم يزل يتبعه الواحد بعد الواحد من أولي البصائر والألباب والعقول الرزينة، على شدةٍ عظيمة، ومقاومات من الأعداء عنيفة، فلم تزعجهم الكوارث، ولا عوّقهم عن قبول الحق خوف ولا ضغط من الأعداء.

وأعداؤه هم أهل الرياسة ولهم السيطرة، فعادوه وعادوا أتباعه، وآذوهم أشد الأذية، وحرصوا على صرفهم عن دينهم، فلم يكن لهم طاقة ولا اقتدار، لأن إيمانهم صحيح ويقينهم تام ، لم يؤمنوا لرغبة بذلها الرسول ولا رهبة، وإنما الرغبة والرهبة في ذلك الوقت عند أعدائه، ولكن هو الإيمان الحق متى وقرفي القلوب لم يرتدّ عنه صاحبه سخطة له، بل يراه أحب الأشياء إليه، وألذها لقلبه، وأعظمها فوزاً وسعادة.

فلم يزل ﷺ يدعو إلى هذا الدين بعزمٍ صادق، وهمة لا تني ولا تضعف، ويقين وثقة بوعد الله، مع قوة المعارضات وشدة المقاومات من جميع الأعداء.

ويتتبع العرب في مواسم الحج وغيره في منازلهم يدعوهم إلى الله وإلى دينه، وأكثرهم معرضون ومعارضون مقاومون، وهو صامد لأمر الله، مصمم على الدعوة لعباد الله، مستقيم على أكمل طريقة من الصدق والعدل والوفاء بالعهد، لا يتزعزع عن الاستقامة، والأخلاق الفاضلة، والنصح والقوة في أمر الله،والشجاعة التي لا نظير لها في الأولين والآخرين، مع اختلاف الأحوال عليه من خوف وأمن، وفقر وغنى، ويسر وعسر، وضيق وسعة، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في مكة مع الضغط العظيم، وانتشر في المدينة أكثر من ذلك، فأذن لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ليتمكنوا من إقامة دينهم، فجعلوا يهاجرون إليها أفراداً وجماعات.

وفي ذلك الوقت عقد الرؤساء من قومه المجالس المتعدّدة للإيقاع به، وإطفاء النور الذي جاء به، ومكروا المكرات العظيمة، والله يكلؤه ويحفظه.

وحين بلغ الأمر أشدَّه، وعزموا على الإيقاع والفتك به، ورتبوا أمرهم وأجمعوا كيدهم ، أذن الله له بالهجرة، فخرج في تلك الحالة الحرجة إلى الغار هو وأبو بكر مختفين ، وبوعد الله واثقين.

واشتدَّ الطلب، وعز التخلص والهرب، ولكن لطف الله ونصر الله فوق مكر الماكرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهذا النصر من أكبر الآيات والبراهين على عناية الله به ، وحفظه إياه ، ووعده الصادق بتمام أمره ودينه.

ثم هاجر إلى المدينة وعناية الله تصحبه، وحفظه وتوفيقه يرافقه، فتلقاه المسلمون، وكل قبيلة من قبائل الأنصار تدعوه إلى النزول عندها وتقول: هلمَّ يا رسول الله إلى العدد والعديد، فاختار الله له ذلك المنزل الذي بركت فيه ناقته ليكون مسجداً له ، ومساكن لنسائه، فاختط مسجده هناك ، وعمل فيه مع المسلمين، وبنى مساكن زوجاته بجواره، وسُرّ المسلمون بقدومه.

ولم يزل الله يشرع الشرائع الكبار،شريعة بعد أخرى، بحسب المناسبات، ثم أذن له في القتال لما اشتدت مقاومات الأعداء بكل طريق، فلم يزل معهم يدال عليهم ويدالون عليه حتى صارت له العاقبة والنصر عليهم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً حين شاهدوا أنوار الإسلام وهداية القرآن وإرشادات الدين، وكان دينه الحق، وما جاء به من أكبر الأسباب لدخول الخلق في الدين، فإنه يدعوهم بنفس الحق الذي جاء به، والذي تنقاد له القلوب السليمة والعقول الصحيحة، وتلين له الصعاب، ويختاره أولو البصائر والألباب الرزينة والآراء الصائبة، لما يرون من إصلاحه العقائد والأخلاق

والأعمال كلها، ودعوته للصلاح المطلق بكل وجه واعتبار.

وما زال ﷺ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ،وبكل طريق يوصل إلى الهداية، ويجادل المبطلين بالتي هي أحسن، حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين، وجمع الله به أمماً متباينة وقلوباً متفرقة ،وأهواءً متشتتة، وأصلح الله به الظواهر والبواطن ، وكلَّ أمر فاسد.

وبعدما كانت الأرض مملوءة من جميع أصناف الشرور،محقها الحق الذي جاء به، حتى امتلأت من الحق والعدل والرحمة والخير والنور، فمحا الظلمات المتراكمة، وحق الحق، واضمحل الباطل وزهق، إن الباطل كان زهوقاً.

فمعرفة الآثار والمنافع العامة العظيمة التي حصلت لأهل الأرض برسالته ودينه من أكبر البراهين الدالة على رسالته، وصحة ما جاء به من الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحدٍ ديناً سواه، وهو دين جميع الرسل وأتباعهم، فهو الدين الذي أخباره في أعلى درجات الصدق، وهو الذي ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به.

بل لو اجتمعت عقول الحكماء وسائر العقلاء عل اقتراح دين أحسن منه وأصلح وأنفع للعباد لعجزت أفكارهم عن أن تصل إلى ما يقاربه.

وأكمل الناس عقلاً من حصلت له به الهداية والرشاد، فإنه تنزيل من حكيم حميد .ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله هدى ورحمة ونوراً وحكمة ورشداً، وحثّ فيه على كل إصلاح في أصوله وفروعه، وأرشد إلى المنافع الدينية والدنيوية.

ثم إنك إذا تأملت أحوال النبي ﷺ وتنقلاته في دعوة الخلق ومعاملاته مع أوليائه وأعدائه رأيت فيها الهدى الكامل والنصح التام، ورأيت آثار دعوته ملأت قلوب المسلمين علماً ويقيناً ومعارف ربانية، واهتدوا بها إلى كل خُلق جميل،وتنزهوا عن كل خُلق رذيل، فكما كانت آثار رسالته في نفسه أكمل الآثار،فتجمعت فيه أصناف الفضائل والكمالات على أكمل وجه، وصار بذلك أكمل البشر في كل

الأمور مطلقاً، فكذلك كانت آثار رسالته في أصحابه وأمته أكمل الآثار وأفضلها وأجلَّها، فلم يصل أحدٌ من الأمم إلى ما وصل إليه أصحابه،وأئمة الهدى من أمته، وطبقات أهل العلم والإيمان من المعارف الصحيحة، والعلوم النافعة، والمعارف الربانية، والإيمان الصحيح، واليقين الكامل، والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، والرحمة بالخلق، والإحسان والعدل، وهذا من براهين صدقه وصحة ما جاء به.

وكذلك من براهين رسالته أنه في هذه المدة القصيرة مكَّنه الله وبارك في عمره الشريف حتى أسس هذا الدين الذي هو أكمل الأديان وأعمَّها وأهداها للخلق، فقرر أصوله وفروعه، وحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا، وصار المثل الأعلى والقدوة للخلق فيما يأتون وما يذرون، وما يقولون ويفعلون.

إن حُققت العقائد الصحيحة، والأخلاق الرجيحة النافعة المصلحة للقلوب، جُعل الميزان فيها عقيدته وأخلاقه، وإن فُصلت علوم الشريعة على سعتها وتنوعها كانت كلها مأخوذة من شريعته وتعليمه، وإن أريد الوصول إلى علم السياسة وفنون الحرب والسلم ومعاملة الأعداء من جميع الوجوه كان المدار فيها على هديه وعمله وإرشاده، وإن طلب علم الولايات كلها صغارها وكبارها: من الإمامة العظمى إلى ولاية الإنسان على عائلته وأهل بيته لم يوجد أكمل من طريقته فيها، وإن حصل البحث في أحوال القلوب ووسائل إصلاحها ودائها ودوائها لم يكن لذلك سبيل إلا بسلوك الطريق التي أرشد إليها.

فلا يوجد علمٌ صحيح ، ولا عمل ظاهر ولا باطن ، إلا وقد هدى الخلق إليه وأرشدهم إليه .اهـ .